٩٩/٩/٤/٢٨

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢١٠
التاريخ ١٥/٢/٢٠١٤

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدي — رئيس التحرير

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٤٠٨٠
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

حول مؤتمر
الولايات العربية ووثائقها
في العصر العثماني

د. عبد الجليل التميمي

كان ذلك ما بين ٢٤ و٢٦ سبتمبر/أيلول ١٩٧٤، وبمعهد الدراسات الشرقية بجامعة نابولي بإيطاليا، حين دُعيت للمشاركة في المؤتمر العالمي الأول للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية Comité International d'Etudes Pré-Ottomanes et Ottomanes (C.I.E.P.O.)؛ وهي اللجنة التي تشكلت بمدينة بروسة بتركيا سنة (١٩٧٢). وأذكر أيضاً أن عدد المشاركين في هذا المؤتمر كان ضئيلاً جداً، وأغلبهم من فرنسا وتركيا وبعض الدول البلقانية. وكنت العربي الوحيد الذي قدَّم بحثاً يتصل بالولايات المتحدة يومئذٍ.

وقد برزت، في هذا اللقاء العالمي، أهمية وحيوية اتصال المتخصصين في تاريخ الدولة العثمانية. وزادنا ذلك اقتناعاً بجدوى هذه اللقاءات، وحرصنا جميعاً على مواكبتها وانجاحها، باعتبارها الوسيلة الوحيدة لمعرفة الاتجاهات المستقبلية للبحث العالمي.

وقد تواصلت هذه اللقاءات، حيث عقد المؤتمر الثاني بمدينة سراجيفو ببوغسلافيا، والمؤتمر الثالث بمدينة هامبورغ بألمانيا. وفي سنة (١٩٨٠)، عقدت حلقة دراسية أخرى بمدينة ستراسبورغ بفرنسا، على هامش المؤتمر العالمي للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا.

ونظراً لعضويتي في اللجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية، فقد تقدّمت باقتراح عقد المؤتمر العالمي الرابع بتونس، خاصة وأن اثنين من المؤتمرات السابقة قد عقدا في بلدان أوروبية، ليس لها تماماً أي ارتباط حضاري بالدولة العثمانية؛ ولم تكن ضمن بوتقتها. وقد شرحت يومها أن الولايات العربية كانت تشكل أربعة أخماس الامبراطورية العثمانية، وأنه من غير المعقول أن يستمر في تجاهل أهمية الدراسات التاريخية العربية التي ظهرت خلال العشر سنوات الأخيرة عن الولايات العربية في العهد العثماني؛ خاصة، إذا علمنا أن

اللجنة العالمية تسعى إلى دراسة العهد العثماني، دراسةً منصفة وعلمية. إلا أن أغلبية الأعضاء قد صوَّتت لفائدة اسبانيا، لأسباب لا مجال لذكرها هنا. وبالفعل، فقد عقد مؤتمرنا الخامس بمدينة كوانكا (من ٣٠ يونيو/حزيران إلى ٤ يوليو/تموز ١٩٨١).

ولدى اجتماع الهيئة المديرة بكوانكا، عرضتُ من جديد اقتراح عقد المؤتمر الخامس بتونس، ومدى أهمية ذلك بالنسبة للبلاد العربية، والبحث التاريخي بصورة عامة. وقد صوّت أغلب الأعضاء لفائدة اقتراحي، وعهدت إليَّ مسؤولية ذلك. وقد سعدت شخصياً بهذا القرار، خاصة وأن عدداً من الأعضاء كان يشك في جدوى هذه المؤتمرات التي تتمّ في البلاد العربية، والتي كانوا يعدونها لقاءات الموائد والزيارات والتعارف. وان القاعدة جرت أن يتكفَّل البلد العربي المضيف، بتسديد كل النفاقات: من تذاكر السفر والإقامة والهدايا المختلفة. وكنت أشعر يومها أن نجاح أو فشل هذا المؤتمر بتونس، سيكون له أبعد الأثر في تغيير الصورة القاتمة أو الابقاء عليها، وهي الصورة التي كانت تتميَّز بها المؤتمرات العربية نتيجة الطابع الاستعجالي والتسييس والاعتباط في اختيار المشاركين، وهذا ما يعكس أن حظ المؤتمرات العربية من الروح العلمية كان ضئيلاً.

وقد آلينا على أنفسنا أن لا ندعو إلى مؤتمرنا إلاَّ العاملين الجادّين، والذين يهمهم تقدم البحث العلمي. وقد وجهنا الدعوة إلى أكثر من مائة وخمسين باحثاً من جميع أنحاء العالم، لا يحدونا في ذلك الاختيار، إلاَّ اقتناعنا بالطابع العلمي لأبحاث الأساتذة المدعوين، وخاصة منهم العناصر الشابة والمغمورة والتي كانت تعمل في ظروف صعبة جدّاً.

ومن جهة أخرى، وكشأن المؤتمرات العلمية البحتة، فإن كل المدعوين ـ تفضّلوا مشكورين ـ بقطع تذاكر سفرهم وتسديد تكاليف إقامتهم بتونس، ولعلَّ هذا هو المؤتمر الأول من نوعه، الذي يتمّ بهذا الشكل في البلاد العربية. ولقد رفضنا الاستنجاد بأيِّ مساعدة من الخارج على الإطلاق؛ ذلك أن نجاح المؤتمرات العلمية العالمية لا يتوقَّف البتّة على المبالغ المالية المخصَّصة، أو المساعدات التي تأتي لمؤسسات دون غيرها.

وقد استجاب لدعوتنا أكثر من مائة باحث، حضر منهم حوالى الثمانين؛ وقُدِّم أكثر من سبعين بحثاً، كانت جميعها في مستوى علمي متميِّز جداً. وقد كتبنا الكلمة التالية في برنامج مؤتمرنا الذي تمّ توزيعه على المشاركين:

«إنه لشرف للمعهد الأعلى للتوثيق، هذه المؤسسة الجامعية التونسية الحديثة العهد، أن تتشرف بدعوتكم لحضور المؤتمر العالمي الخامس عن الولايات العربية ومصادر وثائقها، وهو المؤتمر الذي تنظمه بالتنسيق مع اللجنة العالمية للدراسات العثمانية.

إن تلبية الدعوة لحضور المؤتمر من طرف حوالى مائة من المتخصصين العالميين، عرباً وأجانب، بتونس ـ بلد الطمأنينة ومهد الحضارات واللقاءات والحوار ـ ليُعَدُّ مكسباً علمياً فريداً، فضلاً عن أنه

يكتسي أهمية بالغة بالنسبة لذي الطموح الخلاق والعاملين المؤمنين بحركية الأخذ والعطاء . على أن الذي يشدّ هؤلاء المؤرخين لحضور مؤتمرنا، هو لا شك ، إخلاصهم للبحث العلمي وسعيهم لتأطير شبكة المعلومات المتناقضة عن الدولة العثمانية والبلاد العربية؛ وهذا في محاولة منهم لتحديد المقاييس والمراجع الأساسية، التي بفضلها يمكننا في المستقبل القريب، القيام بتحليل أكثر إنصافاً وأقل تناقضاً عن الدولة العثمانية والبلاد العربية .

ومما لا شك فيه أن هذا المؤتمر سوف يؤكد على مدى أهمية المصادر العثمانية والعربية وغناهما، لكل ما يتعلّق بالولايات العربية في العهد العثماني .

إن تنوّع المحاضرات التي ستقدَّم أو ستقرأ، وتعدد جنسيات المشاركين الذين تفضّلوا بتسديد نفقات سفرهم وإقامتهم، يجعل من هذا المؤتمر، مؤتمراً فريداً من نوعه على الإطلاق .

نأمل أن ينجح هذا المؤتمر في خلق حركية علمية حقيقية، رغبة منّا في محاربة حالة الفقر الفكري التاريخي العربي، وكذلك ظاهرة تسييس المؤتمرات العديدة التي تمّت حتى اليوم في الوطن العربي .

إننا نريده مؤتمراً علمياً بحتاً » .

وهذه هي قائمة الأبحاث، التي قُدِّمت في المؤتمر:

د . أبو عليه، عبد الفتاح حسن؛ (كلية العلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية ـ الرياض) :

العثمانيون وبنو خالد في الإحساء .

د . احسان أوغلو،أكمل الدين؛ (مدير مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية في استانبول) :

أشغال المركز العلمية لكل ما يتعلق بالتاريخ الإسلامي .

الحكيم أرنولاي، فرنسوا : **(صحافة استانبول وأحداث تونس سنة ١٨٨١) .**

د . اريبوس بالاو، ماريانو؛ (جامعة كنبلوتنس ـ مدريد) :

حول إرسال كميات من القمح من المغرب الأقصى إلى طرابلس .

د . اريكان، مظفر؛ (كلية اللغات والتاريخ والجغرافيا ـ جامعة انقرة) :

أنقرة والعثمانيون (ت)(★)

السيدة اسين، أمال؛ (معهد أبحاث الثقافة التركية) :

(★) الاصطلاحات التالية هي:
(ع) إلقاء المحاضرة باللغة العربية .
(ف) إلقاء المحاضرة باللغة الفرنسية .
(ق) إلقاء المحاضرة باللغة الانكليزية .
(ت) إلقاء المحاضرة باللغة التركية .

والخطيب والأديب والفقيه الذين ساهموا في الازدهار الثقافي. كما أنه يؤكد على حب العرب للعلم ولطلاب « الحديث » و « الأدب »، وعلى دعمهم السخي لأيّ جهد يُبذل من أجل دفع حركة المعرفة والعلم إلى الامام. كما يبيّن انشداد رجالات العلم إلى الأعمال التي يقومون بها، ولا مبالاتهم حيال الملذات الحياتية الدنيوية، واهتمامهم في بناء قاعات للمطالعة ومكتبات وبيوت لرجالات الفقه والعلم. ويبيّن تقرُّب وودّ الوزراء المتنوّرين للمفكرين والفلاسفة.

لقد أولى برتولد اهتماماً خاصاً لنقد التيارات العصبوية الدينية، لدى بعض الباحثين الذين تجمَّعوا حول مجلة « **التبشير المناهض للاسلام** »؛ فلقد تابع برتولد تقاليد استاذه روزين في نقد اتجاه هذه المجلة، ومَنْ وراءها من منظري البلاط القيصري والمستشرقين اليهود المتأثرين بالايديولوجية الصهيونية. وفي معرض تقويمه لكتاب المؤرخ الروسي تسفيتكوف، شن سهام نقده العلمي لكل من يتحيَّز للعصبوية الدينية وللاتاريخية، فيشير إلى: « أن الحضارة الاسلامية هي ظاهرة تاريخية، ليست من البساطة بمكان لكي يتناولها المرء بمقالة أو ببحث صغير. فلا يمكن إدراك الحياة المعاصرة للعالم الاسلامي بدون معرفة الماضي. وفي هذا الحقل من المعرفة، كما هي الحال في أي حقل آخر، تقتضي الضرورة التوقُّف عند الانجازات التي توصلت إليها الأبحاث العلمية، لا التسرُّع في الاقتباس العشوائي لبعض المقتطفات من الكتب المدرسية. فهذه الحقائق البسيطة لم يدركها للأسف في روسيا إلاَّ عددٌ قليل من الاختصاصيين »[٢٠].

الشيء الذي غاب عن أبحاث برتولد، هو استقراء وتحليل الظروف التاريخية التي أدَّت إلى نشوء الاسلام. والذي شكّل ظاهرة تاريخية أدت إلى تحوُّلٍ نوعي في حياة العديد من الشعوب الشرقية، وامتد ليشكِّل ظاهرة عالمية. فهذا التحوُّل لم يأتِ إلاَّ بعد تراكم عدد من العوامل الروحية والسياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية، التي كانت تعيشها شبه الجزيرة العربية. ولم يتوقف برتولد عند هذه المسألة، فقد كان محور اهتمامه منصبا على التفاعل السياسي والثقافي بين هذه البيئة وبين سورية المسيحية وإيران واليمن التي كانت تتعايش فيها سابقاً ديانات توحيدية ثلاث. ويقول برتولد إن الصراع الايديولوجي، الذي تمثَّل بين الوثنيين والتوحيديين، لا يُعتبر كما يظن بعض مفكري الاسلام الدوغمائيين، السبب الاساسي الذي أدَّى إلى نشوء الاسلام؛ ففي مقالته « **مسيلمة** » المخصصة لهذا الموضوع، يشير إلى « أن بداية انهيار التيار الوثني حملت دلالات واقعية، فهي تُجسِّد وتمثِّل على أرض الواقع بداية انهيار العلاقات القبلية »[٢١]. يصل إلى هذا الاستنتاج دون أن يتوسع فيه، ويمضي إلى القول « بأن الاسلام يتميَّز عن كل الأديان بعدم ارتباطه الوثيق بالماضي »[٢٢].

هذا الاستنتاج، يناقض موقف مؤلفه الذي يؤكد على دور الماضي في صناعة الحاضر. كما أن الوقائع تؤكد على العكس من هذا، فمجمل العلاقات الثقافية والاقتصادية والروحية التي كانت تعيشها شبه الجزيرة العربية،

شكلت الأرضية التاريخية لنشوء الإسلام. فالكثير من المفاهيم والصور والمصطلحات والوقائع التي جاءت في القرآن، كانت متداولة في هذه المنطقة. بكلمة إن الاسلام شكّل التحوّل النوعي في الحياة الروحية والمادية لشعب شبه الجزيرة العربية؛ وكان الامتداد التاريخي الطبيعي لتطوّر الأفكار الدينية في وعي هذا الشعب. مما لا شك فيه، أنه كان للعلاقات المتبادلة السابقة واللاحقة بين الاسلام وبقية الاديان والحضارات خارج إطار شبه الجزيرة العربية، دوراً هاماً في الازدهار الثقافي والاقتصادي؛ وهذا ما أكد عليه برتولد مراراً. بيد أن العامل الأساسي، الذي أدّى إلى نشوء الحضارة العربية ـ الاسلامية، برأينا هو مجمل العوامل التاريخية الداخلية التي عايشتها الجزيرة قبل القرن السابع.

إن مقالة واحدة عن مكانة برتولد في تاريخ الدراسات الاسلامية، وموقفه من الحضارة العربية ـ الاسلامية، لا تكفي للتوقّف عند كل دراسة والدخول في تفاصيلها وأفكارها؛ سيّما وأنه كتب المئات من الأبحاث والتعليقات والترجمات حول هذه المواضيع. فلقد نشر في «الانسكلوبيديا الاسلامية» لوحدها (٢٤٧) مقالة علمية عن الاسلام والحضارة العربية ـ الاسلامية وتاريخ آسيا الوسطى. وكتب (٣٧) عملاً في اللغات الاجنبية معظمها في الالمانية. وتُرجم له حوالى (٧٨) عملاً [٢٤ إلى التركية، ١٥ إلى الالمانية، ١٤ إلى الانكليزية، ٥ إلى الفارسية، ٣ إلى العربية وغيرها][٢٣]. ولقد تم العثور في أرشيفه، الذي جمعه العلماء ياكوبوفسكي وكليموفتش وخاليدوف[٢٤]، على دراسات جديدة عن النبي محمد، وعن موقف الاسلام من المرأة، وعن انتشار الاسلام في المناطق المتاخمة للبحر الأسود. إلى ذلك فقد قام بتحليل وتقويم أهم الدراسات الاسلامية في عصره، وشارك بنشاط في العديد من المؤتمرات العلمية العالمية حول الاسلام والحضارات الشرق ـ اوسطية، التي عقدت في كل من لندن وباريس وبراغ وبتروغراد ولايبزيغ.

لقد صمدت أعمال برتولد أمام عجلة الزمن، ودخلت عن جدارة السجل الذهبي في تاريخ العلم. وخير دليل على ذلك، هو إعادة جمع مؤلفاته وطبعها في مجلدات تسع. وفي حدود معلوماتي، أن الطبعة الأولى نفدت. وهناك تصميم لدى هيئة تحرير الآداب الشرقية، التابعة لمعهد الاستشراق، لإعادة طبع المؤلفات مرة أخرى.

حتى الآن، ما زال اسم وتراث هذا العالم الكبير يلمعان بين المستشرقين الغربيين، المهتمين في دراسة الاسلام وظروف تطوّره وانتشاره. فمعظم دراساته، ما زالت تثير اهتمام كل الذين يدرسون العام والخاص، في تاريخ الحضارات، وحيثيات العلاقة بين الشرق والغرب، وخصائص تكوّن العقل الشرقي والغربي.

غير أن دراسات برتولد حول الحضارة العربية ـ الاسلامية، جاءت لا لتصنع منها رمزاً ونموذجاً، يمكن الرجوع والركون له في أيّة أزمة ثقافية وحضارية راهنة، بعيشها الشرقي في منطقته أو الغربي في إطار حضارته الغربية. بل هي محاولة جادة من قبل عالِم تقدمي أوروبي لدراسة إحدى المراحل التاريخية، التي سُرت بها

البشرية في القرون الوسطى؛ وذلك من أجل معرفة الذات الاوروبية والروسية، من خلال معرفة تاريخ « الغرب ». كما أنها جاءت لتسلّط الأضواء على كل ما هو محب للحرية والانسانية والعدالة. ومن هنا، تكمن أهميتها لأن هذه القيم هي ملك لكل إنسان أينما كان. وهي، وإن كانت في شموليتها تعطي تصوراً عاماً شاملاً، وإن كانت لم تدخل عمقاً في تحليل الشخصية العربية ـ الاسلامية، فلقد فتحت الطريق أمام دراسات علمية جادة في ميدان الاستشراق الروسي السوفياتي ـ ميَّزته عن الاستشراق « المركزي الأوروبي، الغربي » ـ بعيدةً عن اتجاه الهيمنة الثقافية والاقتصادية، التي كانت المحرِّك الأساسي والهاجس الأهم للدراسات الغربية عن الشرق. وإننا نعتقد بأن إبراز مؤلفات برتولد يساهم في تقريب الوجه الانساني في الثقافة الغربية عن ثقافتنا وتراثنا. ونعتقد أيضاً بأن لا فائدة من التعامل مع تراث برتولد، ولا مع الجانب المُشرق في تراثنا، ما لم يوظَّف في معركة الحاضر من أجل بناء المستقبل العربي المتقدِّم إجتماعياً وحضارياً. لذا، فالتعامل مع المخطوطة القديمة أو مع الدراسة المعاصرة، سواء كانت غربية أم شرقية، هو في غاية الدقة؛ فأيُّ خطأٍ مقصود أو غير مقصود يؤدي بصاحبه، إما للاستسلام للثقافة الامبريالية وهي الأقوى في عصرنا، أو الرضوخ إلى التاريخ القديم وهو ما يُنعت أصحابه بالاتجاه السلفي. فكلا الاتجاهين لا يؤديان إلاَّ إلى المزيد من تراكم الستريوتيبات المشوَّهة، كل منهما عن الآخر؛ ويبعد القارىء عن الحقيقة العلمية، ويجعله يخضع في ظل تطوّر وسائل الاعلام الغربية إلى المادة الصناعية والثقافية التي ينتجها الغرب الأميركي والاوروبي.

الهوامش

(١) راجع الرسائل الروسية للاكاديمي **روزين**، رقم ٢٣١ - ٢٣٢؛ المتحف الآسيوي التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية، لينينغراد ١٩٢٩. (بالروسية)

(٢) **مار. ي. برتولد، كمؤرخ وعالم**. « أخبار أكاديمية العلوم » ـ موسكو ١٩٣١، رقم ١ ـ (ص ١٢ ـ بالروسية).

(٣) P. Pellios, W. Barthold; - «Toung Pao» TXXVII, 1930, P 459.

(٤) Sir E. Denison Ross; Obituary Professor Barthold, - «The times» London 26. VIII, 1930.

(٥) راجع مجلة « **الشعلة** »، موسكو ـ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٦، عدد ٤٠، (بالروسية).

(٦) راجع مجلة « **عالم الاسلام** » ـ عدد ١ ـ ١٩١٢، (ص ٢ ـ بالروسية).

(٧) المصدر نفسه، (ص ٤٤١).

(٧ ـ مكرّر) - A.F. Kpemer, Geschichte der herrchenden Ideen des Islams Wien, 1868.

(٨) برتولد: « **عالم الاسلام** » (ص ٧٧ ـ ٧٨).

(٩) المصدر نفسه، (ص ٨١).

(١٠) «**عالم الاسلام**» ـ عدد ١ (ص ٤، ٧٩، ٨٠)

(١١) برتولد: **المؤلفات الكاملة**، المجلد السادس ـ موسكو ١٩٦٦، (ص ١٣٦ ـ بالروسية).

(١٢) المصدر نفسه، (ص ١٣٧).

(١٣) كراتشكوفسكي. إ: **المؤلفات المختارة**، المجلد الخامس ـ موسكو/لينينغراد ١٩٥٨؛ (ص ٣٥٤ ـ بالروسية).

(١٤) المصدر نفسه، (ص ٣٥٥).

(١٤ ـ مكرّر) A. Metz, Die Renaissance des Islam, - Heidelberg, 1922.

(١٥) J. Hell, Die Kultur der Araber, - Leipzig, 1909.

(١٥أ) برتولد، ف: **المؤلفات، الحضارة الاسلامية** ـ المجلد السادس، موسكو ١٩٦٦، (ص ١٤٦ بالروسية).

(١٦) راجع، روجيه غادوري: **حوار الحضارات** ـ بيروت ١٩٧٨، (ص ١٠٧).

(١٧) راجع، بندلي الجوزي: **دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب** ـ دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧، (ص ٢٠١).

(١٨) راجع، برتولد: **المؤلفات**، المجلد السادس ـ موسكو ١٩٦٦، (ص ٦١٧).

(١٩) راجع، مقدمة سعديف. أ، لكتاب مونتغمري واط: «**تأثير الحضارة العربية ـ الاسلامية على أوروبا**»، [الترجمة العربية للدكتور جابر أبي جابر، مراجعة الدكتور توفيق سلوم] ـ دمشق ١٩٨١، (ص ٣٢).

(٢٠) برتولد: المجلد السادس، [مصدر سابق]، (ص ١٢).

(٢١) المصدر نفسه، (ص ٥٥٦).

(٢٢) المصدر نفسه، (ص ٦٣٠).

(٢٣) يمكن الرجوع إلى البيبليوغرافيا، التي أعدها البروفسور أمينيكوف عن أعمال برتولد الكاملة، هيئة تحرير الاداب الشرقية ـ موسكو ١٩٧٦، (بالروسية).

(٢٤) تاريخ دراسة أرشيف برتولد، من كتاب: **العلاقات النقدية والتجارية الشرق ـ أوسطية في القرون الوسطى** ـ دار العلم، موسكو ١٩٧٩، (ص ٢٤٦ ـ ٢٦٢، بالروسية).